أثر السياق الأسطوري على نظرية الوجود

عند سقراط وأفلاطون

اعداد

سهيرأحمدعبد الحميد حسين

معيدة بقسم الفلسفة، آداب بني سويف

المستخلص:

شكلت الأسطورة أهمية كبرى عند سقراط وأفلاطون؛ فآراؤهما عن العالم الإنساني والطبيعي مستمدة من أشعار هوميروس وهزيود وأورفيوس من جهة، ومن أصول الأفكار الأسطورية في الميثولوجيات الشرقية من جهة أخرى؛ لذلك ترجع أهمية هذا الموضوع إلى توضيح مكانة الجانب الميثولوجي عندهما، ومدى تأثيره عليهما تجاه نظريتهما في الأخلاق والوجود.

كلمات مفتاحية

الأسطورة، أسطورة العماء، أسطورة العناصر الأربعة، أسطورة الكهف، أسطورة المعادن الأربعة، أسطورة الضرورة واللوجوس، أسطورة العربة المجنحة.

Abstract:

The myth was of great importance to Socrates and Plato; Their views of the human and natural world derive from the poetry of Homer, Hesiod, and Orpheus, on the one hand, and from the mythological origins of ideas in Eastern mythology, on the other; Therefore, the importance of this topic is due to the clarification of the status of the mythological side with them, and the extent of its impact on them towards their theory of ethics and existence.

تمهيد.

إذا كنا قد رأينا تأثير الأسطورة بشكل ملحوظ على الفلاسفة الإيليين والطبيعيين المتأخرين، الذي لم نراه عند السفسطائيين؛ نظرًا لنظرياتهم في المعرفة، فسوف نرى مدى تأثر سقراط وأفلاطون بها.

أولًا: فلسفة سقراط:

سقراط والوجود الإنساني:

لم يهتم سقراطΣωκρᾰτης (حوالي ٤٧٠ – ٣٩٩ ق. م) بدراسة العالم الطبيعي كالفلاسفة السابقين عليه؛ بل اهتم بالأمور الأخلاقية للإنسان، وما ينبغى عليه أن يؤديه من واجبات تجاه نفسه ومجتمعه، والتي أدت به إلى صراع مع رؤساء مدينته؛ فاتهموه بإفساد عقول الشباب بآرائه الغير قويمة، وتحريضه على الثورة(١).

فقد فرض الشعراء الهازلون، وظن غُمَّار الشعب أنه يذهب فى الرأى مذهب الفلاسفة الطبيعيين والسفسطائيين، لكنه أعلن أمام المحكمة بأنه ليس واحدًا من هؤلاء ولا أولئك؛ فهو من ناحية لا يدرى شيئًا عن الفلسفة الطبيعية؛ لا احتقارًا لأبحاثها، ولكن فى الواقع يجهلها، ومن ناحيةٍ أخرى لم يكن من السفسطائيين؛ لأنه لم يُؤْجَر على تعليمه، ووضَّحَ سقراط عدم انشغاله بالفلسفة الطبيعية بقوله: (الحق الصراح أني لا أتَّصِلُ بتلك الدراسة الطبيعية بسببٍ من الأسباب، ويشهد بصدق قولي كثيرٌ من الحضور؛ فإليهم أحتكم . انطقوا إذن يا مَنْ سمعتم حديثي، وأنبئوا عني جيرانكم، هل تحدثتُ فى مثل هذه

(١) Philip Stokes: Philosophy - ١٠٠ Essential Thinkers , Op., Cit., p. ٢١.

الأبحاث كثيرًا أو قليلًا؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطَعُوا فى سائر الاتهام بصدقي مما يقررون فى هذا الجزء)(١).

فقد دافع سقراط عن نفسه ضد متهميه الذين اتهموه بحث الناس على أن يكفروا بآلهة المدينة، وأن يعبدوا آلهةً جديدة ابتدعها هو ابتداعًا، ولم يكتفوا بهذا القدر من الاتهام، بل إنهم ليذهبون إلى أنه أنكر الآلهة إنكارًا تامًّا، وأنه يقول إن الشمس والقمر عبارة عن صخور وتراب، فيتعجب سقراط من هذا الاتهام، ويبين للقضاة أن ذلك خلطٌ واضحٌ بين آرائه، وبين ما كان يقوله "أنكساجوراس" من قبله، ومن ضمن الناس التى وجهت لسقراط الاتهام "مليتس"، الذي نري حديثه مع سقراط أثناء محاكمته كالتالي:

سقراط: هذا قولٌ عجيبٌ لم نعهده يا مليتس، ماذا تعني به؟ ألستُ أؤمن بإلهي الشمس والقمر؛ وهى عقيدةٌ سائدة بين الناس جميعًا!

مليتس: إنى أؤكد لكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما؛ فهو يقول: إن الشمس كتلة من الحجر، وإن القمر مصنوعٌ من تراب!.

سقراط: لعلك يا صديقي مليتس تريد أنكساجوراس بهذا الاتهام، ويظهر أنك تُسيء الظن بالقضاة، فتحسبهم بلغوا من الجهالة حدًّا لا يعرفون معه أن تلك آراء مسطورة فى كتب أناكساجوراس الكلازوميني، وهى مليئةٌ بمثلها، وتلك التعاليم هى التى يقال: إن سقراط قد أوحى بها إلى الشبان، والواقع أنهم عرفوها من المسرح الذى كثيرًا ما يعرضها، وأجر المسرح لا يزيد على دراخمة واحدة؛ ففى مقدور الناس جميعًا أن يشهدوها بهذا الأجر الزهيد، ثم يهزؤون

(١) أفلاطون: الدفاع، ضمن كتاب محاورات أفلاطون (أوطيفرون. الدفاع. أقريطون. فيدون)، ترجمة: ذكى نجيب محمود، تصدير: مصطفى النشار، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٥٩، ٦٧.

من سقراط كلما نسب إلى نفسه تلك الأعاجيب، ولكن حدثني يا مليتس؛ أفتظن حقًّا أنى لا أومن بإلهٍ ما؟

مليتس: أقسم بزيوس أنك لا تؤمن بكائنٍ من كان(١).

لعل العقل يجد نفسه في حيرة تجاه هذا الاتهام، فكيف يُتَّهَمُ سقراط بهذه الادعاءات الباطلة؟ وهو يتَّسِمُ بالحكمة، ويشهد بحكمته صديقه "شريفون" الذى ذهب إلى معبد دلفي، وسأل الراعية فى جرأة لتنبئه بمَنْ هو أحكم من سقراط؛ فأجابت النبية: "أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمته"(٢).

وهناك دليلٌ آخر نؤكِّدُ به حكمة سقراط، أنه كان يدعي الجهل عند طرحه للأسئلة على محاوريه, وهذه الأسئلة هي: ما هى الفضيلة؟ ما هو مفهوم التقوى؟ ما الجمال؟ ثم يستمع لإجاباتهم ويحاورهم بأساليبَ مختلفة؛ لكى يمدهم بالدروس المفيدة، والآراء الصحيحة، ولكى يتضح لهم معرفة المفهوم الصحيح من المفهوم الخاطئ؛ وبذلك نكونُ قد تعلَّمْنَا من سقراط معرفة التفكير النقدى(٣)، كما دلل على نفسه بقوله: (فأنا كما تروننى أسير وفقًا لما يرسمه لي الإله؛ أفتِّشُ عن الحكمة فى كل مَنْ يَدَّعِيها، لا أبالي أكان من أبناء الوطن أو غريبًا، فإن لم أجده، كما أدعى، صارحته بجهله كما أمرتني الراعية)(٤)، بل كان يحث الناس على الالتزام بسلوك الفضيلة؛ فمَنْ

(١) نفس المصدر، ص٦٠- ٧٠.

(٢) نفس المصدر، ص٦٨.

(٣) Philip Stokes: Philosophy - ١٠٠ Essential Thinker , Op., Cit., p. ٢١.

(٤) نفس المصدر، ص٧١.

يقوم بأدائها يُكافَأ، ومَنْ يرتكب الرذيلة يُعاقب، وعلى الناس الالتزام بفعل الخير؛ لكي يحسنوا حياتهم الأخروية، ولا يعاقبهم القَدَر(١).

وإذا كان سقراط لم يوضح تمامًا نظريته فى خلق العالم، إلا أنه كان يقول دائمًا بوجود علة عاقلة تدخلت فى تكوين المخلوقات، كما كان يؤكِّدُ أن ما يحدث فى الكون، والحياة الإنسانية إنما يحدث بتدبيرٍ ونظام وعناية إلهية . وأن المخلوقات لم تكن وليدةَ المصادفة البحتة، أو المادة؛ وإنما هى من نتاج عقلٍ مدبر منظم(٢) .

ثانيًا: نظرية الوجود عند أفلاطون:

١- الأسطورة ونظرية المثل:

احتلت الأسطورة أدوارًا هامة وعديدة فى محاورات أفلاطون؛ فقد شكَّلَت نقطة البدء فى حديثه عن مصير الروح والموضوعات الميتافيزيقية والمعرفية التى تخصُّ العالم الطبيعى إلى جانب مجالي الأخلاق والسياسة، وأدت دورها على المستوى الأخلاقي فى الامتثال بالصفات الأخلاقية . أما على المستوى السياسي فقد أسهمت فى سن القوانين والالتزام بالعدالة، وبهذا فقد شملت الأسطورة عند أفلاطون جانبين؛ نظرى وعملى؛ فهى تمنح الفيلسوف مجموعةً من البديهيات فى مجالي الميتافيزيقا والمعرفة(٣).

---

(١) Hugh H. Benson: A Companion to Plato , Black well publishing Ltd , Oxford , ٢٠٠٦ , p. ٢٠٢.

(٢) مصطفى النشار: فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها فى الفلسفة الإسلامية والغربية، دار التنوير للطباعة والنشر،ط ١، بيروت، ١٩٨٤م، ص٩١.

(٣) Gerald A. Press: The Continuum Companion To Plato , Continuum International Publishing Group , New York , London , ٢٠١٢ , p.٧٩.

تُعْتَبَرُ نظرية المثل الأساس الذى بنى عليه أفلاطون فلسفته؛ والتى أراد بها أن يتوصل لحقيقة الكون الذى قسمه لعالمين: العالم السماوي "عالم المثل"، والعالم المادي "العالم المحسوس"؛ فالعالم الأول يتميَّز بالثبات والخفاء، ولا يستطيع الإنسان العادي أن يتوصل لمعرفته إلا إذا كان فيلسوفًا؛ لأنه يدرك طبيعة المثل بالفكر والتأمل، أما العالم الثاني ينظر إليه أفلاطون بأنه مزيَّفٌ مليءٌ بالصور الباهتة، ودائمًا فى تغير مستمر ومعرفته ظنية تدرك بالحواس، وتحمل نظرية المثل ثلاث دلائل: وجودية، غائية، منطقية، فهى تتناول الشيء ذاته، أو المثال ذاته للوجود الحقيقى؛ فجميع الأشياء تتحدد ماهيتها عبر مشاركتها للمثل(١).

وقد نبعت فكرة الخير و"عالم المثل" عند أفلاطون دون شك من الفكر المصري القديم، حيث إن الحضارة المصرية قامت على أساس عقيدة عبادة الشمس "الخير"؛ فكانت الشمس عند المصريين القدماء هى الرمز المحسوس للألوهية ومصر كلها كانت تدين بعبادة الشمس، وتتلمس صفحها وغفرانها، وتوغلت هذه العبادة فى نفوس المصريين القدماء؛ وخاصة عندما نادى بعبادتها "إخناتون"، وكانت الشمس هى خير الوجود والحياة الدائمة، وقال أفلاطون عن الخير إنه شمس المُثل، أو شمس العالم المعقول، فقد اختار أفلاطون الشمس كمركز لفكرة الخير (٢)، لأنها الابنة التي خلقها الخير، وقد خلقها فى العالم المنظور؛ لكي يكون لها فيه، بالنسبة إلى الإبصار والأشياء المنظورة منزلة الخير في العالم المعقول بالنسبة إلى العقل والمعقولات، ومن

(١) Ilyas Altuner: Ontological Bases of the Universe in Plat,s and Aristotle,s Cosmologies , Journal of Social Sciences , No. ٣ , Nisan , April ٢٠١٣ , p.٣.

(٢) عفاف فوزى نصر: الفلسفة المصرية القديمة وأثرها على الفلسفة اليونانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١٩٢.

خلال تلك المنزلة الأسمى للشمس اعتبر أفلاطون أن الأجرام السماوية كائنات حية أزلية، وأن الشمس هى المتحكمه فيها، وأن النور والإبصار مشابهان للشمس فى العالم المحسوس؛ لكنهما ليسا مشابِهَيْن للشمس ذاتها، وأن إله الشمس هو المتحكم في إيجاد الرابطة التى تجمع بين حاسة الإبصار، وإمكان رؤية الشيء.

أسطورة الكهف:

تخيل أفلاطون في هذه الأسطورة أن هناك رجالًا قبعوا فى مسكن تحت الأرض على شكل كهف، تظل فتحته على النور، ويليها ممر يوصل إلى الكهف، وقد قُيِّدَت أرجلهم وأعناقهم بأغلال؛ بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم، ولا رؤية أي شيء سوى ما يقع أمام أنظارهم، إذ تعوقهم الأغلال عن التلفت حولهم برءوسهم. ومن ورائهم تضيء نارٌ اشتعلت عن بعد فى موضع عالٍ، وبين النار والسجناء طريقٌ مرتَفِع، ويوجد على طول هذا الطريق جدارٌ صغيرٌ مشابهٌ لتلك الحواجز التي نجدها فى مسرح العرائس المتحركة، والتى تخفى اللاعبين وهم يعرضون ألعابهم، ثم يتصور أفلاطون على طول هذا الجدار الصغير، رجالًا يحملون شتى أنواع الأدوات الصناعية، التى تعلو على الجدار، وتشمل أشكالًا للناس والحيوانات وغيرها، صُنعت من الحجر أو الخشب أو غيرها من المواد، ويفترض أننا إذا أطلقنا سراحَ واحدٍ من هؤلاء الرجال، وأرغمناه على أن ينهض فجأة، ويدير رأسه، ويسير رافعًا عينيه نحو النور. عندئذ تكون كل حركة من هذه الحركات مؤلمة له، وسوف ينبهر إلى حد يَعْجَزُ منه عن رؤية الأشياء التى كان يرى ظلالها من قبل، وأنه سيحاول الهرب، والعودة إلى الأشياء التى يمكنه رؤيتها بسهولة، بل إنه سيجد من ينبئه بأن ما كان يراه من قبل وَهْمٌ باطل، وأن رؤيته الآن أدق؛ لأنه أقرب إلى الحقيقة، ومُتَّجِهٌ صوب أشياء أكثر حقيقة، ومن هنا أيضًا سيجد أن

الطريق الذي كان فيه من البداية سهل عن أن يتطلع لضوء الشمس، لذلك نتساءل: ما هو الحل الذي تركه أفلاطون لهذا الرجل لكي يتمكن من رؤية ضوء الشمس؟ يقول أفلاطون: إنه يحتاج ـــ فى الواقع ـــ إلى التعود تدريجيًّا قبل أن يرى الأشياء فى ذلك العالم الأعلى، ففى البداية يكون أسهل الأمور أن يرى الظلال، ثم صور الناس وبقية الأشياء منعكسة على صفحة الماء، ثم الأشياء ذاتها. وبعد ذلك يستطيع أن يرفع عينيه إلى نور النجوم والقمر؛ فيكون تأمل الأجرام السماوية وقبة السماء ذاتها فى الليل أيسر له من تأمل الشمس ووهجها فى النار [١].

يفترض أفلاطون بعد ذلك بأنه إذا عاد هذا الرجل إلى الكهف وشرح للسجناء الموجودين فيه ما رآه فإنهم سَيَنْفِرُونَ منه ويُكَذِّبُونَه، ومن هنا نقول إن أفلاطون لم يكن هدفه من هذه الأسطورة أن تكون قصة للتسلية بل كان غرضه التفرقة ما بين العالم المعقول والعالم المحسوس؛ فالكهف هنا رمزٌ للعالم المحسوس، وضوء الشمس رمزٌ للعالم المعقول .

٣- ديوتيما والحب:

لم يكن أفلاطون أول من قال بالحب، بل سبقته الأسطورة البابلية التي قالت بوجود إله الجمال والحب؛ واسمه "تموز"، وأنه كان يسكن في ظل شجرة الحياة في بستان "أريدو" الذى تسقيه مياه دجلة[٢]، وكان الحب البذرة الأولى للعقل عند الهنود، ثم تأثر به هزيود وجعله عاملًا أساسيًّا في تكوين العالم، متمثلًا في الإله "إيروس" إله الحب؛ وهو من أعظم الآلهة عند هزيود، وتأثر به بارمنيدس وأنكساجوراس، وأعلى من شأنه كل من فيثاغورس وهيراقليطس وأنبادوقليس؛ إذ جعلوه المسئول عما يوجد بين الأضداد من انسجام في هذا

(١) أفلاطون: محاورة الجمهورية، مصدر سابق، (فقرة ٥١٤: ٤١٦)، ص٤٠٧.

(٢) بغوس سامية: أسطورة الانبعاث عند أدونيس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران – السانيا، ٢٠١١ – ٢٠١٢ م، ص١٢.

العالم. ونعلم أن أنبادوقليس قد نظر إليه كقوة كونية تُحَارِبُ الكراهية، وتنشر التآلف في الكون كله؛ لذلك لم يكن أفلاطون أول من اهتم بالحب كل هذا الاهتمام، لكن يُحسب لأفلاطون أنه أنزل قوة الحب هذه من بين الآلهة في السماء، وجعلها بين الناس على الأرض.؛ كما جعلها سلاحًا في يد الإنسان – وليس في يد الإله – تساعده، وتأخذ بيديه إلى العالم السماوي(١).

اتخذ أفلاطون الحب وسيلةً للوصول لعالم المثل، وتحدث عنه فى محاورة المأدبة وفايدروس، وأراد عن طريقه أن يتوصل إلى مبدأ الجمال فى ذاته، والخير فى ذاته المدْرَك بالعقل عن طريق الربة "ديوتيما" التى ساعدته فى الوصول لهذا الهدف الأسمى؛ والذى كان الغرض منه الوصول للفضيلة والصلاح للنفس؛ فهما الطريق للوصول لحبِّ الخير فى ذاته، ويعلق أرسطو فى هذا الصدد بقوله: (الإله هو الدافع الأول لوجود العقل وتحقق الرغبة معًا، ويتحرك بوجود الحب، المُدين لديوتيما) (٢)، وعرفت ديوتيما الحب في محاورة "المأدبة" بأنه: نفس عظيمة، وهو مثل كل النفوس يكون توسطًا بين الإلهي والفاني، وتصف الحب بأنه الحب الأبدي السرمدي لامتلاك الخير، أما عن قوة الحب، يتحدث عنه سقراط بأنه متمثل في وجود رابطة تربط الآلهة بالبشر؛ فالإله لا يمكنه أن يختلط بالإنسان، لكنه بواسطة الحب يستمر كل اتصال، ونجد من جراء هذا الحب تقديم البشر القرابين والصلوات والذبائح

(١) محمود السيد مراد: دور الجمال في نظرية الحب عند أفلاطون، بحث في مجلة كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي، العدد الخامس والعشرون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠٠٢ م، ص٢٦٥.

(٢) Plato: The Symposium , Trans. with Comment by: R. E. Allen , Volume II , Yale University Press , New Haven and London , preface , p ix , x.

للآلهة، إضافة إلى أن الكاهن يمتلك فنونًا محاطة بالغموض؛ نظرًا لرابط الحب القوي بينه وبين الآلهة(١).

ومن هنا نجد أن الحب يختص بمعرفة الوجود الثابت الذى يسعى إليه الفيلسوف بفكره، ويهدف لكل ما هو جميل فى ذاته (٢)، وهذه هى طبيعة الحب التي تتحدث عنها ديوتميا بأنها طبيعةٌ أبديَّة فى المقام الأول، لا تعرف الولادة والموت، ولا النمو والفساد، ولا تكون جميلة فى وجهة نظر وبشعة فى أخرى، أو أنها تكون جميلة فى وقت، وقبيحة فى وقتٍ آخر، أو أنها جميلة للبعض وذميمة إلى الآخرين، بل إنه جمال محضٌ، منفصلٌ، بسيطٌ، وأزليٌّ، جمالٌ يضفى على الجمالات الناشئة والفانية؛ فمن يريد أن يسمو من هذه الأشياء الأرضية، يجب أن يبدأ من الجمالات الأرضية، ويرتفع إلى أعلى؛ من أجل ذلك الجمال الآخر، مستخدمًا هذه الجمالات الأرضية كدرجاتٍ فقط، ويرتقى صُعدًا من واحدتها إلى الثانية، ومن الثانية إلى كل الأشكال الجسدية الجميلة، ومن الأشكال الجسدية الجميلة إلى الممارسات الجميلة، ومن الممارسات الجميلة إلى العلوم الجميلة، إلى أن يرتقي من العلوم الجميلة إلى العلم، الذي ليس له هدفٌ أو غاية أخرى غير الجمال المحض؛ وهو الجميل بذاته(٣).

يرسم لنا الحب الواقع ويظهر كروح تحتل موقعًا متوسطًا ما بين الحياة البشرية والإلهية ويربط بينهم، ولا يخضع لأي سيطرة، فهو يحقِّقُ البهجة

(١) - أفلاطون: محاورة سيمبوزيوم – المائدة، ضمن كتاب المحاورات الكاملة، ترجمة: شوقي داود تمراز، مصدر سابق، ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) - Gerald A. press: The Continuum Companion To Plato , Op., Cit., p.١٩٧

(٣) - أفلاطون: محاورة سيمبوزيوم – المائدة، مصدر سابق، ص١٧٦.

والسرور[١]، وقد ذكره أفلاطون فى محاورة فايدروس كنوعٍ من أنواع الهوس وهو "هوس الحب" الذى يعود على المحب والمحبوب بخيرات كثيرة، وهو الهوس الصادر من الآلهة الأسمى من حكمة البشر، فهو يقدم للبشر وسيلة جذب تحميهم من المصائب التي تحيط بهم عن طريق عبادة الآلهة وتقديم الطقوس وإقامة الصلوات[٢].

ثانيًا: الألوهية وعلاقتها بالعالم الطبيعي:

١- أسطورة العماء :

تحدثنا فيما سبق عن أسطورة العماء في جُلِّ الأساطير الشرقية واليونانية، حيث كان العالم في حالة من الفوضى والتشوش عند البابليين والهنود والتاويين، وكذلك عند هزيود، ثم تأثر بهذه الأسطورة إنكسيمندر وأنبادوقليس، ثم جاء أفلاطون وتأثر بها أيضًا، وبناءً على ذلك لم يكن أفلاطون أول من قال بتلك الأسطورة، فقد كان الإله عند أفلاطون العامل الأساسى فى نشأة العالم، الذى حوله من الفوضى والاضطراب إلى النظام والترتيب، ولأنه يتسم بمبدأ الخير؛ فقد أراد أن يصبح كل شيء مثله[٣]، وهذا ما وضحه في محاورة "طيماوس" كالتالي:

(أراد الإله أن تكون جميع الأشياء جيدة، وألا يكون شيء منها خبيثًا، وتناول بعد هذا التصميم كل ما كان مرئيًّا غير هادئ، لا بل مضطربًا ومصطخبًا مُشَوَّشًا، ونقله من الفوضى إلى النظام؛ معتقدًا أن حالة النظام أفضل على كل وجهٍ من حالة الفوضى . ولم يكن حلالًا، ولا يحل الآن،

---

(١) Gerald A. Press: Op., Cit., p.١٩٧.

(٢) - أفلاطون: محاورة فايدروس، مصدر سابق، فقرة (٢٤٤ – ٢٤٥ هـ)، ص٧٤،٧٥.

(٣) John Burnet: Greek Philosophy Thale to Plato , Op., Cit., p. ٢٧٧.

لأفضل الكائنات أن يصنع شيئًا ما لم يكن أبهى الأشياء)[١]، ولكي يكون العالم حيًّا شاملًا متكاملًا فى غاية التكامل هندس الإله العالم، وبنى تنسيقه بالعناصر الأربعة "الماء – الهواء– التراب – النار" .

٢– صفات العالم:

العالم عند أفلاطون عبارة عن كائن حي ذي نفس وعقل، وندلل على ذلك بقوله: (ففكر إذن، وبعد التفكير وجد أنه لا يمكن أن يصدر عن الأشياء المرئية بالطبع كونٌ مُتَكامِلٌ بلا فهم يَفْضُلُ كونًا متكاملًا ذا عقل وفهم، وأنه يستحيل أن يؤتى أحد العقل دون نفس. وبناءً على هذا التفكير، جعل العقل فى النفس، والنفس فى الجسد، وهندس الكون بالطبع أبهى الأشياء، وينجز هو خير الأعمال؛ فعلى هذا النحو إذن، يجب القول، طبقًا لبرهان محتمل، بأن العالم فى الحقيقة كائنٌ حيٌّ ذو نفس وعقل، وأنه حدث وصار بعناية الإله)[٢].

تبرهن هذه الفقرة على أن الإله اتصف بالعقل، ولاحظ أن العالم لا يكتمل وجودُه إلا بتميُّزِه بالعقل؛ لأنه بإمكانه أن يُخرج أفضل الأعمال، وبما أن أفلاطون ربط العقل بالنفس؛ إذن فالعالم عنده ذو نفس وعقل، وأن كل شيء فيه يسير بعناية إلهية.

والعناية الإلهية عند أفلاطون لا تساوى فكرة العناية فى الأديان السماوية، ولا العناية التى تصورها الفلاسفة الرواقيون؛ لأنهم تصوروا أن العقل الكوني يتدخل فى تدبير كل صغيرة وكبيرة، وتوجيه كل شيء بحسب حكمته؛ فالعناية الإلهية عند أفلاطون تتلخص فى تحقيقها النموذج المثالي

(١) أفلاطون: الطيماوس واكريتيس، فقرة a ٣٠، ص١٩٨.

(٢) نفس المصدر، فقرة ٣٠ b , c، ص٢٠١.

فى المادة المحسوسة بقدر الإمكان[١] . وأدار أفلاطون العالم تدويرًا، وجعله أكمل جميع الأشياء، وأشبه شيء بذاته "هو الشكل الكروي"؛ معتقدًا أن الشبيه أفضل بعشرة آلاف مرة من المغاير) [٢].

ووصف أفلاطون العالم بأنه ليس له أعضاء؛ فهو ليس بحاجة فقط إلى عيون، إذ لم يُترك خارجًا عنه شيء منظور، وليس بحاجة إلى سمع، إذ لم يُترك خارجًا عنه شيء يُسمع، ولم يحدق به هواءٌ لطيفٌ يستدعي التنفس، ولم يحتاج أيضًا إلى عضو ليطعمه، أو آخر به يدفع نفاية الأكل الذي قد سبق واستساغه؛ لأن لا شيء يخرج منه ولا شيء يتمكن من الدخول فيه من أي مصدر كان، ويتأثر بذاته في ذاته، ويصنع كل شيء بذاته في ذاته؛ لأن الإله الذي ركب عناصره اعتقد أنه خير له أن يكتفي بذاته من أن يحتاج إلى الأشياء الأخرى، ولم يكن له أيادٍ، إذ ليس في حاجة له أن يأخذ، ولا أن يركب له أرجلًا، وحباه الإله حركة دائرية[٣]

وبما أن افلاطون جعل الإله هو المسئول عن تكوين العالم البدائي؛ فقد جعله أيضًا مؤسس العدالة؛ بوضعه أدوارًا منظمة؛ لا يمكن للإنسان أن يخترقها؛ حتى لا يعاقب بسببها[٤] ، وفكرة مبدأ الصانع الأول فى الخلق لم تبدأ على الإطلاق على أيدى أفلاطون؛ وذلك لأنه كان معروفًا فى بلدان

---

(١) مصطفى النشار: الألوهية عند أفلاطون وأثرها على الفلسفة الإسلامية والغربية، مرجع سابق، ص١٣٦.

(٢) أفلاطون: الطيماوس والكريتيس، فقرة ٣٣ b، ص٢٠٧.

(٣) مصدر سابق، فقرة ٣٣ c , d، ٣٤ a، ص٢٠٨.

(٤) Jason G. Rheins: The Intelligible Creator – God and The Intelligent Soul of The Cosmos in Plat,s Theology and Metaphysics , Degree of Doctor of Philosophy , University of Pennsylvania , ٢٠١٠ , p. ٢٥٦.

الشرق القديم، ويعلمونه قبل زمن أفلاطون بقرون عديدة. فالفرس عرفوا هذا المبدأ منذ أكثر من ستة قرون ق.م على يد زرادشت. كما عرفت لدى اليونان قبل أفلاطون عند فيثاغورس؛ علاوة على ذلك فإن التاريخ يروي أن مصر هى المصدر الأول لهذا المبدأ الصانع الأول والذى يرجع تاريخه فى مصر إلى ٤٠٠٠ ق.م؛ فتوجد فى فقه الإلهيات فى مدرسة ممفيس: نقش على حجر محفوظ الآن فى المتحف البريطانى[١] .

٣- وحدانية العالم:

لم يكن أفلاطون كالسابقين قبله؛ القائلين بعددٍ لا يُحْصَى من العوالم؛ بل قال بوحدة العالم، وهذا ما برهن عليه بقوله: (فإن تأمل المرء بِرَوِيَّة فى كل هذه الأمور، قد يتساءل فى حيرةٍ: هل يجب القول بوجود عوالم لا تُحْصَى، أو القول بأن لها حدودًا. ويُمكن الظن أن الاعتقاد بوجود عددٍ لا يُحْصَى من العوالم هو اعتقاد رجل ليس له خبرة حقًّا فى أمور يُفرض عليه أن يكون خبيرًا فيها. أما التساؤل الآخر، هل يليق القول بأن العالم قد نشأ فريدًا أم نشأت فى الواقع خمسة عوالم؛ فإن توقف المرء عند هذا التساؤل، فحيرته قد تكون طبيعية ومقبولة أكثر منها فى السؤال الأول. أما نحن، فالإله ينبئنا دونما ريب أن العالم برز واحدًا فريدًا بالطبع، وهذا ما يثبته لنا البرهان المعقول. أما غيرنا فقد يعتقد فيه اعتقادات أخرى نظرًا لاعتبارات غير هذه. ولكن فلندع هذا النقاش) [٢].

يمكننا أن نقول من خلال هذه الفقرة إن أفلاطون نقد القائلين بوجود عددٍ لا يُحْصَى من العوالم، وأشار بأنهم لا يمتلكون أي معرفة أو خبرة في

(١) أحمد عرفات القاضى: صورة الحاكم الفيلسوف "بين أفلاطون وبعض فلاسفة الإسلام"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٧١، ٧٢.

(٢) أفلاطون: الطيماوس واكريتيس، فقرة ٥٥ d، ص٢٥٩.

هذه الأمور، وأن الإله ما دام أوجد العالم فريدًا، كان لا بد عليه أن يجعله واحدًا.

ويؤكد لنا هذا الحديث أيضا قول أفلاطون بوحدانية الإله ووحدانية العالم، ويدلل على قوله بأنه إذا كان هناك عدد لا يُحْصَى من العوالم، لا بد أيضًا أن يكون هناك عدد من الآلهة، كل إله يحكم عالمه الخاص به، وبما أن كل إله يحكم عالمه الخاص به، سيكون هناك عدد من السماوات كل سماء تختلف عن الأخرى، وبالتالي سيكون هناك تشوش وفوضى في الكون؛ ومن أجل ذلك أوجد الإله عالمًا واحدًا، وسماءً واحدة.

٤- أسطورة العناصر الأربعة:

أراد الصانع أن يزين العالم بالعناصر الأربعة التى كانت فى البداية فى حالة فوضى، ثم أراد أن يؤتي كل عنصر شكله مستعينًا بالمثل والأعداد ويتضح ذلك في قول أفلاطون:

(فمن جهة إذن، كانت جميع تلك العناصر، قبل ذلك العهد، على حالٍ خَلَت فيها من التعقل والاتزان تمامًا. عندما شرع الإله يزين "الكل"؛ {أي العالم بأسره}، كانت النار أولًا ثم الماء فالتراب والهواء، كانت كل هذه محتفظة ببعض آثار جوهرها. إلا أنها برزت فى حالة فوضى مطلقة، على ما يكون عليه كل شيء عندما يبتعد الإله عنه أو يغيب. وإذا كانت عندئذٍ بالطبع على ذلك الوضع آتاها الإله أشكالها لأول مرة؛ مستعينًا لذلك بالمثل والأعداد، ومن جهة ثانية، ركَّبَهَا الإله ـــ قَدْرَ المستطاع ـــ أبهى وأفضل تركيب، وهى لم تكن على شيء من ذلك. فليظل قولنا هذا راسخًا على الدوام، بغض النظر عن أي قول أو اعتبار آخر.)، ويعلن أفلاطون أن أجسادنا تتكون من العناصر الأربعة؛ لأن الأشياء الموجودة فى الكون تتولد على هذه الطريقة نفسها، والكائنات الحية تشعر بانطباعات الحر والبرد. وهذه الانطباعات لا

يمكن المرء أن يفهمها إلا إذا وَجَدَ فى تلك الكائنات عنصر النار والماء، وفضلًا عن ذلك فالنار مبدأ الحركة، والماء والبرودة مبدأ السكون والراحة، ولكن التراب هو الذى يقوم بالدور الرئيسي فى تكوين الأحياء، وعلى الرغم من اختلاف الحركات والتحولات الموجودة بين هذه العناصر إلا أن الإله حقق بينها الانسجام، وأبدعها في صورة من النظام والإتقان(١).

لعلنا نتساءل ما موضع العناصر الأربعة فى هذا العالم: الماء والهواء والتراب والنار؟ بين هذه العناصر تناسب دائم ينتهى إلى الانسجام فيما بينها وترتيب العناصر كما يأتى: النار، ثم الهواء، ثم الماء، ثم التراب بحسب الثقل. ثم بين هذه العناصر، وبين بعضها الآخر تناسب؛ فالنار للهواء، كالهواء للماء، كالماء للتراب. وسر تناسبها هو ما فيها من روح الصداقة والوئام، ولا يمكن أن يحدث لها انفصالٌ إلا إذا شاء الإله(٢)، فالعالم عند أفلاطون أصبح منسجمًا بالتناسب؛ وذلك بفضل روح الصداقة التى كانت موجودة بين العناصر الأربعة.

٥- أسطورة العربة المجنَّحَة:

تحدَّثَ أفلاطون عن أسطورة العربة المجنحة التي فيها شَبَّهَ النفسَ بعربةٍ ذات جَوَادَيْنِ وسائق، وجميعهم قد زُوِّدُوا بالأجنحة، وصنف النفوس أنواعًا تختلف باختلاف جودة عناصر هذا التركيب؛ فعناصر النفوس الإلهية متآلقة، وحركتها منتظمة منسجمة؛ ومن ثَمَّ فهى أشد تطلعا وامتزاجًا بعالم المعقولات السامية، ويروي أفلاطون فى هذه الأسطورة أن النفوس في البداية كانت تعيش فى مكانٍ ما يعلو السماء. وهناك كانت تتأمل مُثُلَ الجمال، والحق، والخير، وتساعدها طبيعتها المجنحة على التحليق والطيران منتظمةً فى موكب النفوس الأخرى الذى يقوده زيوس كبير الآلهة، وينقسم الموكب

(١) أفلاطون: الطيماوس واكريتيس، فقرة ٥٣ b , c، وفقرة ٥٦ c، ص١٣٢.

(٢) أحمد فؤاد الأهوانى: فى عالم الفلسفة، مرجع سابق، ص٤٠.

إلى أحد عشر فَيْلَقًا؛ على رأسٍ كل منها إله ما عدا "هستيا" التى تظلُّ مستقرة فى قعر دارها، ويختلف مسلك النفوس أثناء طوافها فى هذا المكان الذى يعلو السماء. فثَمَّةَ نفوسٌ إلهية جيدة التركيب، نبيلة العناصر، لا تعترض سبيلها أية عقبات، وثمَّةَ نفوسٌ أخرى للجانِّ، ونفوسٌ بشرية، وهذه النفوس الأخيرة غير متجانسة التركيب، بل متباينة العناصر؛ لأن أحد جيادها جامحٌ ذو طبيعة شرسة تختلفُ عن طبيعة السائق والجواد، ويحدث لهذه النفوس أن تسهو بسبب الغفلة يختلُّ توازنها فتسقط فى جسمٍ إنسانيٍّ تتفاوت منزلة صاحبه بين البشر(١).

ويحدثنا أفلاطون بعد ذلك عن المراتب التى تستقر فيها النفس؛ فالمرتبة الأولى تستقرُّ فى رجلٍ محبٍّ للحكمة "الفيلسوف"، والثانية تستقر فى مَلِكٍ يحكم بالقانون، والمرتبة الثالثة فتحيا فى رجلٍ سياسي، والمرتبة الرابعة فهى لرجلٍ محبٍّ للتمرينات الرياضية، أما الخامسة؛ فتصلح لحياة عرَّافٍ، والسادسة فتناسب شاعرًا أو فنانًا، والسابعة للزُّرَّاعِ والصُّنَّاعِ، والثامنة لبارع السفسطة، أما التاسعة ـــ وهى الأخيرة ـــ فللطاغية(٢).

واستمدَّ أفلاطون فكرة سائق العربة والجوادين المُجَنَّحَيْنِ من مصر؛ نظرًا لأن اليونانيين لم يستخدموا العربة الحربية فى حروبهم، وأن مصر هى البلد الوحيد الذى تخصَّص فى صناعة العربات الحربية، وفى تربية الخيل؛ فالصورة المجازية عن سائق العربة والجوادين المجنحين هى وصفٌ لخاصية

(١) أفلاطون: فايدروس، مصدر سابق، (فقرة ٤٤٨ – ٤٤٩)، ص٣٣، ٣٤.

(٢) نفس المصدر، ص٨٢.

النفس ومصيرها على نحو ما يظهر فى ساحة العدالة، خلال مشهد يوم الحساب فى الآخرة فى كتاب "الموتى المصرى القديم" [١].

وتأثر أفلاطون بالموسيقى عند الفيثاغوريين؛ حيث كان لها تأثيرٌ مهم على النفس؛ فهى تحقق لها الانسجام، ونلاحظ ذلك من خلال قوله على لسان سقراط لأديمانتوس:

سقراط: فاستطردت قائلًا: ومن هنا كانت الأهمية القصوى للموسيقى فى التعليم؛ ذلك لأن الإيقاع والانسجام قادران على التغلغل فى النفس، والتأثير فيها بعمق، وهما يزينان النفس بما فيهما من جمال؛ وذلك إذا ما تم تعليمهما كما ينبغى، على حين أنهما يقبحانها إذا أُسِيءَ تعليمها. وفضلًا عن ذلك فالتعليم الموسيقى إذا ما أحسن أداؤه، يتيح للنفس أن تكشف مظاهر النقص والقبح فيما يبتدعه الفن، وتخلقه الطبيعة، فيتأثر بهذا الكشف؛ بحيث يشيد بما يراه من مظاهر الجمال، ويتقبلها فى نفسه مسرورًا، فيجعل منها غذاءه، ويغدو رجلًا خيرًا، ويحمل من جهةٍ أخرى على الرذائل، ويمقتها منذ نشأنه، قبل أن يستطيع التفكير فيها بعقله. وعندما يكتمل لديه العقل، يدركها ويتعرف عليها كأنها قريبة منه مألوفةً لديه، إذ إن ما تعلمه من الموسيقى ييسر له التعرف عليها.

أديمانتوس: إننى أوافق على أن هذه هى المزايا التى تعود على المرء من تعلم الموسيقى[٢].

(١) أحمد عرفات القاضى: صورة الحاكم الفيلسوف "بين أفلاطون وبعض فلاسفة الإسلام"، مرجع سابق، ص٧١.

(٢) أفلاطون: محاورة الجمهورية، مصدر سابق، فقرة ٤٠٢، ص٢٦٧.